



خطبة صلاة الجمعة 1/ 5/ 2015 للشيخ الطيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

(تحمل المسؤولية-2)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليفه، خيرُ نبيِّ اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كرهه، اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (هَذِهِ أَجْمَعُ آيَةٌ فِي الْقُرْآنِ لِحَيْرٍ مُّتَتَلٍّ، وَلِشَرٍّ يُجْتَنَّبُ).

روى الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَا مِنْ شَيْءٍ يُوَضَّعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةً صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ» [الترمذي].

أيها الإخوة:

هذه هي الخطبة الخامسة عشرة في سلسلة خطب عنوانها (فضيلة... أخلاق تعاملية)، بإمكانك التدرب على الخلق الحميد لتكتسبه، وبإمكانك التخلي عما علق بك مما لا يليق بمثلك. وهذا هدف السلسلة.

عنوان خطبة اليوم: (تحمل المسؤولية-2)

أيها الإخوة:

خمسة أمور تعزز خلق تحمل المسؤولية فينا، بها ختمت خطبة الأسبوع الماضي:

1- الإكثار من ذكر الله.

2- مصاحبة أصحاب الهمم العالية.

3- التبصير بالمسؤوليات.

4- مكافأة من يتحملون مسؤولياتهم بنجاح.

5- تدريب الأبناء على تحمل المسؤولية.

ولأننا على أبواب رمضان، ولأن أبنائنا على أبواب امتحاناتهم، ولأننا محتاجون لشحن الهمم لحمل مسؤولياتنا خفافاً وثقلاً، اخترت لكم اليوم صوراً متنوعة من رجال عكّتهم همهم، فطارت بهم وطاروا بها.

فهدف الخطبة شحذ الهمم لحمل المسؤولية.

قال ابن الجوزي في كتابه النافع (صيد الخاطر):

(من علامة كمال العقل: علو الهمة، والراضي بالدون ذي... وما ابتلي الإنسان قطُّ بأعظم من علوِّ همته، فإنَّ مَنْ علت همته يختار المعالي، وربما لا يساعد الزمان وقد تضعف الآلة فيبقى في عذاب... ومن رُزِقَ همة عالية يُعَذَّب بمقدار علوها). كما قال الشاعر:

وإذا كانت النفوس كباراً
تعبت في مرادها الأجسام

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢].

قال القرطبي المفسر: يعني يجد واجتهاد.

وفي سورة طه يقول الله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: 84].

وقد قام عليه الصلاة والسلام في الليل حتى تفتطرت قدماه -يعني تورمت ثم تشققت-.

وها هو القرآن يدعو أتباعه إلى علو الهمة في حمل المسؤوليات، مسابقةً ومسارةً واستباقاً وسابقين:

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: 21].

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133].

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: 48] ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (IO) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: 10، 11].

ومن هنا قال الصالحون: (من لم تكن له بداية محرقة، لم تكن له نهاية مشرقة).

وقالوا: (العلم والعمل توأمان أمهما علو الهمة).

وإليك هذه الصور:

- همة الشباب في تحصيل العلم:

روى الحاكم في المستدرک علی الصحیحین عن عكرمة قال: قال ابن عباس: (لما قُبِضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا شاب، قُلْتُ لشاب من الأنصار: هَلُمَّ فلنسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولنتعلم منهم، فإخهم اليوم كُثُر، فقال لي: يا عجباً لك يا ابن عباس؟ أترى الناس يحتاجون إليك، وفي الناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من فيهم؟ قال: فترك ذاك وأقبلتُ أنا على المسألة، وتتبع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كنت لأتي الرجل في الحديث يبلغني أنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجده قائلاً، أي نائماً منتصف النهار، فأتوسدُ ردائي على بابه تسفي الرياح على وجهي التراب حتى يخرج، فإذا خرج قال: يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء بك؟ هلا أرسلت إلي فأتيك؟

فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك، بلغني حديث عنك أنك تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحببت أن أسمعه منك. فكان الرجل يراني بعد ذلك وقد ذهب أصحاب رسول الله واجتمع حولي الناس يسألوني، فيقول: هذا الفتى أعقل مني).

- همة أهل الحديث في كتابة العلم:

قال المتقدمون: (كنا لا نُعَدُّ صاحب حديث من لم يكتب عشرين ألف حديث في الإملاء). وكتب الحافظ الدمشقي ابن عساكر كتابه الموسوم (تاريخ دمشق) وهو في ثمانين مجلدة بيده، وكذا كتب سائر كتبه التي جاوزت الخمسين.

على حين أن الشيخ ابن عبد الدائم المقدسي كتب (تاريخ دمشق) ذا الثمانين المجلدة مرتين. وكتب (المغني) لشيخه الموفق بن قدامة المقدسي وهو عشر مجلدات كبار مراتٍ. وقال الإمام أحمد: (مع الحبرة إلى المقبرة)، وكان قد سئل: إذا كتب الرجل ثلاثين ألف حديث لم يكفه؟ فسكت، قيل: ستين ألفاً؟ فسكت، قيل: مئة ألف؟ فقال: حينئذ يعرف شيئاً. وكان يحيى بن معين يقول: كتبتُ بيدي هذه ستمائة ألف حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- همة ستيفن وخلدون:

ستيفن هو كينغ من أعظم علماء الفيزياء المعاصرين، يحتل الكرسي الذي كان لـ"إسحاق نيوتن" في جامعة "كامبريدج"، يقول الفيزيائيون: إنه تمكن من تحقيق أعظم إنجاز فيزيائي في مرحلة ما بعد أينشتاين، وشكّل إنجازَه أحد أعظم الانقلابات في تاريخ العلوم.

ألف كتاباً سماه: (مختصر تاريخ الوقت) فكان أكثر الكتب مبيعاً في العالم.

ستيفن هذا مصاب بشلل تام في أعضائه، وهو فوق ذلك لا يستطيع النطق، ويحتاج إلى الرعاية الدائمة، وكل ما هو قادر عليه أن يحرك اثنتين من أصابع يده اليسرى فقط، وذلك كل شيء.

كان والد ستيفن باحثاً علمياً، وكان ستيفن يكرّز أولاده الذين عاشوا في جوٍّ علمي وعائلي متين الأواصر، ودخل ستيفن جامعة "أوكسفورد" عام (1959م)، وواصل الدراسة حتى التحق بجامعة "كامبردج".

ولكنه ما كاد يُمضي شهراً قليلاً في "كامبردج" حتى ظهرت عليه بوادر علّة جسدية، وأخذ يتعثّر في مشيه، ويُنْأَتِي في لفظه، ويجد صعوبة في السيطرة على ذراعيه وساقيه، ووجده الأطباء مصاباً بخلل جانبي في الأنسجة والأعصاب الإرادية، وهو داء قد يؤدي به إلى الشلل ثم الوفاة.

في السبعينات ساءت حال ستيفن إلى الحدّ الذي أوجب إبقائه في كرسي متحرك، إلا أنّ قواه الذهنية بقيت تحلّق عالياً، فصار من كبار علماء الفيزياء، حتى قيل عنه: (إنه مقيد بالسريّر لكن عقله يسبح في الفضاء الواسع).

ولعلك تسأل: إذا كان الرجل عاجزاً عن الحركة والنطق فكيف يكتب ويتفاهم مع الآخرين؟

إنّ ذلك يكون عبر جهاز كمبيوتر خاص به يستعمله بأصابع يده اليسرى.

وبالمناسبة: **خلدون سنجاب** شاب سوري مصاب بمثل ما أصيب ستيفن: شاب مقيد بالسريّر لكن عقله يسبح في الفضاء، أصيب بشلل رباعي، ثم أصيب باعتلالات شديدة في جهازه البولي، ثم أصيب عنده مركز النطق والتنفس، لكن همته تعلو في ذرا السماء، فلذلك قرر أن يتحمل مسؤولياته ويكون رجلاً كما الرجال، وهو الآن مبرمج كمبيوتر محترف، يعود إليه أكابر المهندسين، وقد صُنِعَ له جهاز كمبيوتر يستطيع أن يحركه بلسانه وهو مستلقٍ على سريّره، والشاشة فوق رأسه، ويحرك الماوس بلسانه، قرأت في صفحته على صفحات التواصل الاجتماعي وأنا أحضر لكم هذه الخطبة، يقول:

قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ [السجدة: 27].

كتب خلدون: ما من خير يُكتب لك، إلّا ويعرف طريقك، بل يُساق إليك سَوْقاً، فلتكن مطمئناً.

أيها الإخوة:

إن كثيراً من الناس يمتلكون أكثر من مؤهلات ستيفن وخلدون بكثير، لكن همهم أدنى من همتهم بكثير، ولذلك وجدناهما يتحملان مسؤولياتهما وزيادة، ووجدنا غيرهما يهربون من مسؤولياتهم ببلادة.

من طُرف أصحاب الهمم العالية:

من نوادر ما قرأتُ في همة المنصرفين إلى طلب العلم والمنشغلين به عما سواه أنَّ الفقيه المالكي الإمام المحدث **محمد بن سحنون القيرواني** (المتوفى سنة 256 هـ) شُغِلَ يوماً في تأليف كتاب إلى الليل، فحضر الطعامُ فاستأذنته زوجته ليأْكُلَ فقال لها: أنا مشغول الساعة فلما طال عليها، جعلت تُلَقِّمُهُ الطعام حتى أتت عليه، وتمادى هو فيما هو فيه إلى أن أُذِنَ لصلاة الصبح. فقال: شُغِلْنَا عنكِ الليلةَ يا أمَّ الأولاد، هاتِ الطعام.

فقالت: قد والله يا سيدي أَلْقَمْتُهُ لك. فقال لها: ما شعرتُ بذلك...!

أيها الإخوة:

إنَّ من مكائد الشيطان أن يثبِّط الهمم ويثقل على الإنسان المسؤوليات والواجبات والسنن، لكن العبد إذا ذكر ما يقرأ في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5].

عَلِمَ أن المعونة قادمة من الله، وأن الإمداد على قدر الاستعداد، وأن الله إذا كلفك أعانك.

فيا أيها الشباب جِدُّوا واجتهدوا وتحملوا المسؤوليات وأكثرُوا من ذكر الله.

ويا أيها الرجال اعملُوا وبادروا وافعلوا الخيرات واتكلوا على الله.

ويا أيتها الفتيات ابدلْنَ واسعينَ وانشرْنَ المبرات وراقِبْنَ الله.

فإنَّ الخير قادم، والصبح آت، أليس الصبح بقريب.

والحمد لله رب العالمين